حبّ بعد الظهيرة

قصة بقلم يوسف شرورو

قبل ان نتبعثر خارج ابواب الكلية القديمة ، قال لي مدرس الرياضيات والبسمة تغطي وجهه المتجعد : ـ باسل ، اتمنى لك وقتا سعيدا خلال عطلة الاسبوع .

قلت له : ـ سوف اغرق في دراستي ..

وخرجت اسير في شوارع « ويلزدون » الصامتة ، بيدي اليمنى تتعلق حقيبة كتبي السوداء الثقيلة ، والطلبة يركضون نحو مواقف الباصات ، يجرون معهم فتياتهم الصغيرات ، وانا في كل مساء ، ادور حول نفسي كنحلة صغيرة قص جناحها ، لا ادري ماذا افعل ، الكتب لم تستطع ان تشدني اليها ، والهاتف في ممر البيت ، صامت كئيب كجثة سوداء . لم اقدر ان اكلم فتاة واحدة تطرد ذباب الكسل الذي يقبلني بضراوة وحشية ، اريد ان احتضن يدا صغيرة ، احدثها عن ايامي ودراستي ، واصدقائي ، ولكن اين هي ؟؟ اتخيلها جالسة بهدوء تنتظرني لاطل بوجهي الشاحب وادعوها الى السينما ، سوف اصاب بالجنون اذا ذهبت الى غرفتي ، الان ، ولاحت في عقلي فكرة ، سأنطلق في شوارع لندن العريضة ، اعترض كل فتاة ترتدي معطفا ملونا ، منذ ايام قال لنا مدير الكلية وهو يزبد غضبا :

ـ احيانا نسخط على انفسنا لاننا اغبياء ، لم نفعل شيئا ، في مواقف تتطلب منا السرعة في العمل ..

في هذا اليوم بدأت اسخط على نفسي ، وايامي المرسومة بالمسطرة والمثلث وقلم الرصاص الحاد .

قد يكون السخط بداية الثورة ، ستكون لي صديقة شقراء احدثها عن بلادي ، مشكلتي ليست مشكلة جنس ، اريد ان اجفف المستنقعات الموحلة بابتسامتها المضيئة ، اشعر بانها تختبىء في مكان ما في لندن ..

وصلت موقف الباص رقم «١٦» . انتظرت قليلا مع امرأة تداعب طفلا اشقر ، كان يبتسم لها بعذوبة ، ورجل يقرأ جريدة بعد الظهر ، باصاتهم غريبة قبيحة ، بنيت بطابقين كبيرين ، سأذهب الى « الماربل ارش » حيث تزدحم القامات البشرية على شكل مظاهرات ، تشاهد واجهات المحلات التجارية الضخمة ، اود ان اتخلص من حقيبتي الثقيلة ، سأجلس في الطابق العلوي ، حيث ادخن سيجارة ، وجلست وحيدا اشاهد منطقة « ادجوار رود » الواسعة ، وساحاتها الموحلة ، سمعت قاطعة التذاكر العجوز بالقرب مني ، ناولتها « ستة بنسات » وقلت بلطف : ـ « الماربل ارش » من فضلك »

كانت كل الايام كئيبة ، تبعث في النفس نفورا وقذارة ، وبغضا للنفس التي احملها معي اينما ذهبت ، الاطارات التي تغلفني كانت رقيقة جدا ، لم تستطع ان تبعد عني كآبتي المترسبة في القاع . الخجل جرثومة ضارة اود ان ادحرها . بالامس قال لي صديقي « داريوش » الايراني :

ـ انا احب العيش في لندن ، فهناك ضعت ، وهنا وجدت الانا التي تعيش في داخلي ، هنا وجدت الملايين تعيش متلاصقة حتى تبدو حمرة الخجل ، امرا غير اخلاقي ..

وامي عندما قبلتني في مطار بيروت قالت وهي تمسح دموعها :

ـ باسل . عد الينا رجلا كبيرا ، لا تثق بالفتيات الاوروبيات .

امي في دمشق ، تبتسم الان ، وترفع رأسها عاليا ، وهي تقول لجارتنا ام محمود :

ـ ابني باسل يدرس الهندسة في لندن، ويتكلم بالانكليزية كالبلبل.

وفجأة تخضل عيناها بالدموع ، ويأتي صوتها مشروخا كصحن صيني سقط من علو كبير : ـ يا حسرتي عليك يا باسل ، كيف تدبر نفسك مع برد اوروبا ؟ تصوري يا ام محمود ، ابني مثل القطة الصغيرة، يحمر وجهه خجلا عندما يتحدث مع فتاة ، يا حسرتي عليك يا ولدي ، ماذا تفعل الان ؟؟

وتستقبلني وجوه الناس النضرة في شارع « الماربل ارش »الباص يبتعد تاركا اياي في القاع . السيارات تتوقف عند اشارات المرور، وانا اتفرس في وجوه الفتيات القادمات نحوي . سأختارها جميلة كحصان عربي مطهم ، احدهم يصدمني بكتفه الايمن ، ثم يقول بلهجة مؤدبة :

ـ آسف سيدي ..

وانتفخ كديك احمر شاهدته ينازل ديكا اخر في ساحات مدريد ، اه ، هذه هي فتاتي ، سأتبعها بخفة قط اسود ، رائع يا باسل ، انها تشتري جريدة ، مثقفة يا ولد ، سوف اناقشها في اخبار العالم ،ولكن لم اتبعها ؟ هذه عادة قديمة يمارسها الشباب في بلادي .

تقدمت منها ، وقذفت بجملة عادية جدا :

آسف يا « مس » ، هل تخبرينني اين محطة « بوند ستريت » ؟؟

دون ان ترفع عينيها عن جريدتها قالت بانكليزية لاطعم لها : ـ سر باتجاه شارع « اوكسفورد » وستجد المحطة امامك !

قلت والفرصة اخاف عليها ان تضيع : ـ هل انت في طريقك الى هناك ؟ ؟

قطبت ، وفتحت جريدتها على الصفحة الثانية ، وبدأت تقرأ .. مجرد الفشل الاول يا باسل يات صن !! سخيفة فتاة الجريدة هذه ، فكرت بانني كنت اغازلها ، واريد دعوتها الى غرفتي ، واشعل ضوءا احمر ، المشكلة يا فتاة ، ليست جنسية ، اريد فقط ان اجد رفيقة لطيفة ، وللاسف انت من اضاع الفرصة .. قد تلتقفها فتاة اخرى .

قهوة « الويمبي » مزروعة بالفتيات الجالسات يقتلهن الانتظار ، سأجلس مع واحدة ، ثم ادعوها الى السينما ، الطاولات يحتلها الكثيرون، فتيات يضحكن بحب للاخرين ، واحدة في الزاوية تقرأ كتابا اوراقه بيضاء ناصعة ، لشعرها ضفيرة سوداء تتدلى على كتفها الايمن ، احب جلستها المتكبرة ، اقتربت منها وقلت بادب : ـ هل استطيع ان اجلس بقربك يا « مس » ؟؟ لم تمانع ، القيت حقيبتي باسفل الطاولة ،وجلست افكر ، ما الذي سافعله ، قلبت فتاتي صفحة جديدة ، متى تلقي هذا الكتاب جانبا ، وتنظر الى عيني القلقتين ؟

غمغمت ، وقلت بصوت فيه همس : ـ ماذا يطلبون هنا للشرب ؟؟

ـ قهوة او شاي ، او عصير برتقال مع سندويشة لحم !!

قلت وانا ابتسم واداعب ملعقة السكر امامي : ـ ماذا طلبت انت؟؟

وضحكت ونظرت الى وجهي من جديد ، ثم قالت : ـ اسمع يا

عزيزي ، انا لم اطلب شيئا لانني انتظر صديقي . قد يأتي الان ، وقد يأتي بعد دقائق قصيرة ..

وعابت مره ثانيه بين سطور كتابها النظيف ، لا تحزن يا باسل ، مجرد الفشل الثاني ، اذن سأطلب قهوة بحليب ثم أخرج الى مكان اخر .. وجاء شاب له لحيه شقراء على شكل الرقم ٧ ، قبل الفتاة ثم قال : ـ آسف يا حب ، لقد تأخر قطاري خمس دقائق ..

اغلقت كتابها بحركة سريعة ، ثم القت بذراعها حول رقبة اللحية الشقراء ، قرات عنوان الكتاب بوضوح ، العنوان يقول « عودة المواطن » للمؤلف توماس هاردي ..

رشفت رشفة كبيرة من قهوتي الحليبية ، وارسلت عيني للبحث عن فتاة جديدة ، لا واحدة تعجبني .. لندن تبتلع في شوارعها وبيوتها اكثر من اربعة ملايين فتاة ، وانا بلا واحدة .

سمعت اللحية الشقراء تقول : ـ حبيبتي ، بعض الناس تجدين راحة ومتعة اذا اطلت النظر الى وجوههم ، وبعضهم لا تستطيعين ان تنظري اليهم ..

الكلب لم ينظر الي مطلقا . القيت شلنا وخرجت ، محلات «جون لويس» مقابل وجهي ، سأتجول هناك ، فالفتيات يتفتحن كالحنون الاحمر في سموح بلادي ، اخترت قسم القبعات النسائية ، لاتسكع فيه ، اه ، هذه هي ، انها تجرب قبعة سوداء كطاسة الجنود ايام الحرب . اقتربت منها وقلت : ـ رائعة هذه القبعة ، انها لك !

قالت بلهجة خليطة : ـ لا املك ثمنها ، انها غالية ..

ـ اذن لنخرج من هنا ، فانت وحيدة ، وانا اعشق ان ارافقك ..

ابتسمت الايطالية المتناسقة ، وسارت امامي نحو قسم الاحذية، لم اتحرك ، فمركبتي صغيرة ، عجلاتها تالفة ، وحصانها مات منذ زمن بعيد، القامات تتحرك بسرعة ، لتشتري وتدفع نقودا زرقاء وخضراء ، ثم تخرج للشارع من جديد ، القلب توقف يا ام ، ورانت عليه غلالة ضبابية، الايطالية وضعت في قدميها شيئا اسود كالحذاء ، وتلفتت نحوي ، وهمست للبائعة بضع كلمات ، ما الذي احاول ان اخمده ؟ انا اصبحت كارض كانت محروثة ، وفيها سماد كثير ، ولم تزرع حتى الان .. قد ازرع هذه الفتاة في داخلي يوما ما . قالت لي البائعة والابتسامة مرسومة على وجهها :

ـ هل يعجبك هذا الحذاء الذي اختارته فتاتك ؟؟

ونظرت الى عيني الايطالية ، الحقول الاوروبية الخضراء القت بكل جمالها وخضرتها في عينيها الحلوتين ، قضيت الحياة منتظرا شيئا مجهولا قد يهل علي فجاة . العينان ، عيناها عاشتا بداخلي كحلم رائع من احلام شبابي . قلت للبائعة الشابة :

ـ سنمر لاخذه غدا .

وبلا كلفة ، وضعت يدي بيد الايطالية وخرجنا الى شارع « بوند ستريت » من جديد ، متوجا ثورتي بهذه الفتاة ، وبدأنا نخترق صفوف المارة ، ويدها الصغيرة تغفو بحنان ساذج في يدي ، شعور جديد داهمني وسكب في لحظاتي الوانا بهيجة ، اتمنى لو اشاهد وجه مدرس الرياضيات الان ، سيصاب بالدهشة ، سأضحك حتى الموت عندما اخبره بقصتي هذه يوم الاثنين القادم ، وكمن افاق مذعورا ، انتفضت الفتاة وقالت بغضب حاد :

ـ الى اين يا سيد ؟ لم تقودني كفتاة صغيرة ؟؟

وتلعثم لساني داخل فمي ، وبحثت عن كلمات جادة فلم اوفق ، واخيرا قلت :

ـ سوف نذهب الى سينما « سينمفون » ، قد نشاهد فيلما ايطاليا هناك .

وتوقفت في وسط الشارع ، واكلتنا عيون عابرة ، وبحركة لاشعورية انتقلت حقيبتي لتتعلق بيدي اليسرى ، واشعلت سيجارة ، ثم قلت بهمس :

ـ هيا نذهب ..

تساءلت بخوف : ـ قل لي ماذا تريد مني ، فانا لا أعرفك .

ـ اود ان احدثك ، فالكلمات مات في داخلي وتعفنت . اريد ان اضعك فراشة صغيرة على كتفي وننطلق معا نقفز درجات الميادين اللندنية ، سنزور معا كل الاماكن المشهورة وغير المشهورة في لندن ، لا تخافي مني يا .... ولكن ، قولي لي ما اسمك ؟؟

وضحكت فرحة ثم قالت : ـ اسمي ماريا أوغستا ، وانا رأيت اماكن لندن الشهيرة ، وفضلني الرومانتيكية المزيفة التي حملتها تلماتك السابقة، هل انت اسباني ؟؟

وعندما عاودنا المسير ، حاولت ان اقبض على يدها فلم افلح ، وصرخت كمجنونة اصابتها لحظة جنون :

ـ هل انت اسباني ، لم تقل لي ؟؟

ـ كنا نعيش في اسبانيا منذ سنين بعيدة ، ثم خرجنا منها ، انا عربي من بلاد تظللها شمس لا تغيب ، واذا صرخت مرة ثانية فسوف اصفعك يا غبية ..

المعاطف الملونة لم تعد تبهرني ، فبجانبي معطف اخضر يسير ملاصقا لي ، الغبية استكانت ، وسارت بهدوء جميل ، ونبتت على ثغرها ابتسامة رومانية ، الرجل في داخلي تثاءب ووقف على قدميه . وانهمر مطر منعش خفيف ، وتراكضت القامات الارقام ، كل منا يحمل رقما صغيرا حول رقبته ، لندن تسحق الشخصية الانسانية وتذيبها ، منا من يحلم طويلا طويلا ، ومنا من يعمل دون احلام ، سخيفة هذه الحياة ، نأتيها دون سلاح ، ثم تجبرنا على حمل السلاح لندافع عن انفسنا ، لنجفف بحيرات وحدتنا الموبوءة ، لنصطاد فتاة صغيرة ، ونفلسف لها الحياة وقصرها ، وعلينا ان نمتصها بشراهة خبيثة ..

قالت ماريا أوغستا وهي تشير باصبعها نحو سينما الاوديون :

ـ فلنشاهد هذا الفيلم ، احب اسمه الغريب « عالم بلا اقنعة » هل تحب ان تراه ؟؟

ودخلنا ، ودحرت الشقي الذي كنته ، السينما فارغة كعين فقدت النور ، المقاعد خالية تعلوها قراعات لاشخاص مجهولين ، اعلانات متحركة جذابة ، وامرأة بدينة تقودنا نحو مقاعد خلفية ، تشابكت يدانا بحركة ميتة ، ثم سمعتها تقول :

ـ قررت أن آتي معك ، بعد ان قلت بانك ستصفعني اذا صرخت، احسست بانك رجل ، والمرأة تريد من يشعرها بانوثتها ، كنت رقيقا ولينا بحديثك عن الفراشات ، وقفز درجات الميادين وزيارة الاماكن ، اه ، كم كنت وحيدة وغبية ..

لم اقل شيئا ، فقد شعرت بروعة الانتصار ، واصابتها هزيمة جعلتها تلقي برأسها الصغير على كتفي ابتسمي يا غرفتي ، فستزورك فتاة تحمل الفرحة اليك ، وسيبعث صوتها الحياة من جديد في الهاتف القابع بلا رنين ، في الممر المظلم ، ستنتظرني عند خروجي من الكلية القديمة ، واعرفها بمدرس الرياضيات ، وبصديقي الايراني داريوش ، سوف آخذها الى الحفلات المسائية ، التي يقيمها الاصدقاء ، الله كم هو جميل ورائع ان تجد من تحدثه في لندن المخيفة .

كان فيلمنا بلا اقنعة ، فهو عار من كل شيء ، حتى الممثلين يخرجون عراة بلا شيء .

وخفت ان انفجر في مكان عام ، يجب ان اعمل شيئا ، ستصاب الفتاة بصدمة لاحضارية ان لم اقبلها . وأكلت شفتها العليا . واستكانت كعصفور صغير على غصن شجرة ، واصبحت مشكلتي جنسية .

اه ، ما انفه الانسان الذي يخطط طويلا ، قد تحملنا رياح مجنونة نحو شواطىء مجهولة بعيدة بعيدة ، سآخذها ونطلق معا ، فغدا السبت وابواب الكلية سيعلوها الصدأ لمدة يومين ، قد تقضي ليلتها عندي، لن احتاج لوضع شلنات مدورة في المدفأة حتى تصبح الغرفة دافئة، ستهدم جدران الصمت بضحكتها البلورية ، سنتحدث عن فن عصر النهضة الذي خرج من بلادها ، وسأحدثها عن الناس الطيبين الذين يعملون دون ملل في بلادي الكبيرة .

قلت ونحن نسير في شارع « ويكمور » :

ـ لندخل مقهى « الجندول » يا أوغستا .

قالت وهي تضغط على يدي : ـ دعنا نسير بلا هدف . لا تخطط لساعاتك .

ـ ماذا تفعلين هنا أيتها البوهيمية ؟

ـ تركت ميلانو منذ شهرين تقريباً ، وجئت الى هنا لادرس اللغة ، قالوا لي هناك بان ابواب المكاتب ستشرع لي عند اخذي شهادة « البروفشنسي » وانا أعمل هنا عند عائلة انكليزية تسكن في «الكولون كرينز» ولكن الحياة مملة هناك ، احب تغيير الوجوه ، لالتقط وجوها جديدة .

قلت وانا افكر في الايام القادمة : ـ قد تشدك عينان الى نهاية العالم ، ونهاية العمر ، قد تقتلك كلمات عينين ، وقد ترقصك عينان من بعيد . انا احب عينيك !!

تعلقت ابتسامة سمحة على وجهها الروماني العتيق ، عندما قالت:

ـ انتم تعيشون الرومانتيكيه حتى الان ، المهم يا عزيزي ان نعيش، لا نعيش الاحاسيس فقط ، بل نعيش الحياة ، كل الحياة ، لا الحاضر ولا المستقبل . لنذهب الى ميدان الطرف الاغر ونطعم الحمام هناك .

ميدان بيكاديلي يموج بالحركة كبركان لا يخمد ، انا مع فتاة صغيرة ، اخرق واياها قلب العالم الاوروبي ، السينمات تعرض افلاما جديدة باسعار خيالية لا اقدر عليها ، امرأة عجزية تقف على ناصية الشارع لبيع زهورا ملونة ، والناس يضعون « بنسات » ثلاثة ويأخذون جريدة المساء ، ويتدافعون كحيوانات اليفة لا تحدش ، على سلالم محطات القطارات ، ماريا اوغستا شقراء ، شعرها طويل كعرف حصان ، بوهيمية تعيش ليومها ، وانا قذفوا بي منذ سنة الى لندن وقالوا بحب اخرق : ـ ادرس الهندسة المعمارية يا باسل . وجئت الى هنا ، طويلا يانعا كوردة حديقة بيتية ، العشرون تخطيتها في الاسبوع الماضي ، تنهشني ساعات من الملل الهرم . القرف اسطبل تفوح منه روائح عفنة، حاولت ان ابددها بكتبي ومساطري ومثلثاتي ، ولكن ، ما زالت بوابة الملل بأعشابها غير المهذبة تفح لي فمها بشراهة ، قد تتلاشى الى غير رجعة ، اوغستا بجانبي ، يدها بيدي ، ترسل عينيها نحو تمثال « نلسون » الجالس على مسلة مسروقة ، تقفز من مكان الى مكان . القيت حقيبتي ونبعتها . اطعمنا الحمام الرمادي حبات بنية اللون ، ورشتني بمياه باردة ترسلها ناعورة عجوز ، وفرحت . الفرح عصفور ازرق يدغدغ القلب بمنقار حنون .

اه يا ام ، لم نقضي الحياة في عزلة ميتة ، والعالم ينبت الفرح على ضفاف مدنه ؟؟

جاء مصور متجول ، والتقط لنا صورة طبيعية ، أعطيته عنواني ليرسلها الي ، وقدمت منا اقدام كثيرة لا اعرفها ، وقتفت افواه :

ـ تشاو ماريا اوغستا !!

وردت ماريا بعذوبة طفلة صغيرة :

ـ هالو فرانكو ، هالو فاندا ، تشاو .. تشاو .. هالو ..

واقتربوا مني بوجوه لطيفة ، وبدأت عملية ترديد الاسماء من جديد ، وانا اهز برأسي واقول مثلهم : ـ تشاو ، هالو ..

كانوا ثلاثة شبان ، وفتاتين ، مجموعة كسرب من حمام مرح، يلتقط الضحك ، ويزرعه في كل مكان ..

قال احدهم لي : ـ نحن ندرس معا في مدرسة « ديفيز اسكول ».. ثم التفت الى ماريا وتابع قائلا : ـ لماذا لم تأت اليوم الى المدرسة؟؟ وانسلت مثل شعاع صباحي نحوه . شاب صغير يحمل وجها ايطاليا حادا ، عيناه تبرقان بحياة عميقة ، يزيدهما عمقا شعره الاسود المنسدل على جبينه ، مقلدا فيه تسريحة الشباب الانكليز لهذا العام .

تركتني وحيدا ، كعربة كسر عامودها الخشبي ، وتخلفت عن المسير، تشاغلت باطعام الحمام الذي لا يشبع ، وتلفت مرات عديدة نحوهما ، كان يطوق خصرها بذراعه الطويل ، وهي تضحك وتتمايل ، وتداعب وجهه بشعرها الاشقر الطويل ، محدثة اياه بلغة لا افهمها . ثم يستطع الحمام ان يشغلني عنها . انتفضت ، وثارت دماء عربية في داخلي ، وقفزت نحوهما ثم قبضت بقسوة مجنونة على ذراعها ، وقدتها بعصبية بعيدا عنه . قلت والكلمات تتواثب على لساني :

ـ انت هنا معي ، لن ادعك تذهبين مع فرانكو او البرتو ، افهمي هذا ، وضعيه في رأسك ايتها الغبية ..

اتسعت عيناها ، وحملقت بي كأنها تراني لاول مرة ، وتراقصت عضلات وجهها وهي تقول :

ـ اسمع ، وجدتك صدفة منذ ساعات ، وسنفترق الان ، كلمانك جافة لا طعم فيها ، انا لا اقبلها ، سيضيع وجهك بين زحمة الوجوه القادمة في ايامي ، وداعا ، وشكرا ، ستجد غيري كما وجدتني ..

اللعينة القذرة ، افواههم تتحرك بسرعة عجيبة ، وكتمثال من ثلج اذابته شمس محرقة سطعت فجأة دون توقع ، سرت نحو حقيبتي المسكينة ، واتجهت نحو ميدان بيكاديلي وانا اردد بهستيرية :

ـ لتسقط هذه المدينة الموبوءة ، ولتشنق كل فتياتها على اعواد خشبية مصقولة .

وتوهجت اضواء النيون الزاهية على جدران بنايات لندنية كالحة. وسقط مطر ثقيل دفعني لدخول حانة قديمة مزدحمة باناس روائحهم غريبة ، قلت وانا اقذف بقدح الويسكي الى حلقي :

ـ يا متفلسف ، لم قلت بان الانسان يعيش حياته بشكل متقطع ؟ قد نعيش في سنة كاملة ، دقائق معدودة ، وقد نعيش في خمس دقائق، سنين طويلة . لقد عشت هذا اليوم كما لم اعش من قبل .

لندن

يوسف شرورو